في عينيه ، ثم ما تلبث ان تتلألأ على اطراف اهدابه ، وتسح على وجنتيه ببطء ، لتنعقد على اطراف لحيته السوداء ، فتبدو وكأنها سرج تتمايل في مهب ريح خفيفة تتسلل من شقوق باب الزاوية الموصد ، ثم تنسكب مرة واحدة في خيط متلاحق ، كانفراط عقد تتناثر حباته على الصنج الذي كان يبدأ بالخفوت بين يدي الشيخ لافي المتمايلتين شيئا فشيئا ٠٠ ويجهش بالبكاء المرير حتى لا يعود يقوى على ضبط نفسه ، فينهض وهو لا يزال يجهش بالبكاء ، ثم يتوسط الحلقة ويبدأ بالدوران على نفسه على ايقاع صنجه الذي يأخذ بالارتفاع شيئا فشيئا ، ثم ينسل من الحلقة خارجا ليهيم على وجهه في الجبال ، في اتجاه مغارة سويد حيث كان يتوحد بالذكر حتى مطلع الفجر ، ولا يجرؤ على اللحاق به سوى حسن المعتوه ، الذي كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره ، والذي لم يكن معتوها بعد ، اذ كان الوحيد الذي يسير على خطى الشيخ لافي سواء في تصوفه او قوة قلبه في ليالي الغزو المظلمة ، الى حد انه كان يكاد يجاريه في ضرب الصنج او التكلم « بالسنسكريتي » ، بعد الشيخ المبروك احمد الحمد ٠

وكان حسن يقفز ، كلما اجهش الشيخ لافي بالبكاء ، الى وسط الحلقة وهو ينتحب ، ويبدأ بالدوران حول نفسه وهو يردد « الله ٠٠ الله ٠٠ الله ٠٠ » ، الى ان يسقط مغميا عليه ، ولا يصحو الا بعد ان يتوقف صنج لافي حين كان يخرج من الحلقة هائما على وجهه ، فيتبعه وهو يجوح بأعلى صوته « شيل الله يا سيدي وامامي الشيخ لافي » ، الى ان عاد ذات ليلة ، وهو يصرخ بأعلى صوته ، صراخا يمزق القلب ، ثم قفز وسط الحلقة ، وراح يدور حول نفسه ، وهو يجهش بالبكاء ، مرددا كلمات لم يستطع احد فهمها مطلقا ، ثم سحب « الشيش » من وسطه ، وراح يمزق به لحمه والدم يتدفق منه ، في غمرة الذكر من حوله ، الى ان فقد وعيه تماما ، وسقط في حضن الشيخ المبروك احمد الحمد صارخا « حيبى » ثم اغمي عليه ٠ فحمله الشيخ المبروك وخرج به ، وهو يقرأ آية الكرسي فوق رأسه عله يصحو ، الا ان حسن وان كان قد صحا من غيبوبته فانه ظل طريح الفراش عدة ايام ، لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتكلم الا كلما اشتدت به الحمى ، حيث كان يتمتم بكلمات متقطعة لم يستطع احد فك طلاسمها ٠

الا ان والدته صحت عليه ذات ليلة وهو يردد اسم الشيخ لافي وخديجة بصوت متقطع مرتفع ٠ وحين اصخت السمع جيدا ، سمعته يردد اسم مغارة سويد ، ولكنه عاد وصمت مرة ثانية ، فظنت انه يطلب رؤية الشيخ لافي ، فخرجت لتوها الى الزاوية تطلب اليه ان يأتي ويقرأ فوق رأس حسن آية الكرسي ، عله بذلك يفك عقدة لسانه ، غير ان حسن ما كاد يراه يدخل عليه ، حتى راح يرتجف مثل زغلول حمام مذبوح ، ثم اغمض عينيه وصرخ « حـ ٠٠ حـ ٠٠ حي » وأغمي عليه ٠ وفي اليوم السابع ، وقبل صلاة الجمعة ، فوجىء الناس بحسن يعلق في وسطه « تنكته » ، ويجوب الازقة في عز الظهر وهو يقرع « التنكة »